شرح

الأصول الستة

لفضيلة الشيخ

خالد بن عبد الله المصلح

www.almosleh.com

الدرس الأول

قال شيخ الإسلام رحمه الله: من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بينها الله تعالى بياناً واضحاً للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا غلط فيها كثير من أذكياء العالم، وعقلاء بني آدم إلا أقل القليل.

بسم الله الرحمن الرحيم وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فهذا هو الدرس المتعلق بستة أصولٍ عظيمةٍ مفيدة، وهو من رسائل شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، والظاهر أن هذه الرسالة مقتطعة من كتابات الشيخ رحمه الله تعالى، فإنه رحمه الله لم يفتتحها بافتتاحٍ واضحٍ فيما نرى ، يعني في النسخة التي بين أيدينا، ولعل لها مقدمةً مستقلةً أو محذوفة، المهم أن الشيخ رحمه الله تعالى أشار في بداية هذه الرسالة المباركة إلى أن هناك أصولاً ستة، هذه الأصول الستة بينها الله سبحانه وتعالى بياناً واضحاً شافياً ساطعاً في كتابه الحكيم.

قال رحمه الله: (**من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاّب: ستة أصول بينها الله سبحانه وتعالى بياناً واضحاً للعوام**)

فقوله: للعوام ليس المراد أن ذلك خاصٌ بهم، بل مراده: أن تلك الأصول الستة واجبةٌ على الجميع، وأنها واضحة لعموم الناس، حتى لمن لم يتعلم من عوام الناس، يدركها الذكي والبليد، يدركها العالم والجاهل، يدركها كل من سمع الخطاب كائناً من كان إذا كان قد توفر فيه عقل الإدراك، فإن كل من توفر فيه عقل الإدراك والتمييز فإنه يدرك هذه الأصول من كلام الله عز وجل.

ننظر في هذه الأصول:

المؤلف رحمه الله بدأ الرسالة بالتعجب من وضوح هذه الأصول، وغفلة الناس عنها، والتعجب هنا معناه: الاندهاش، والانبهار من هذه الحال، بغضّ النظر هل سببه معلوم أو غير معلوم، هل سببه معروف أو غير معروف، فإنه ليس من لازم العجب جهل السبب كما هو معلوم مقرر، فإن العجب يطلق على ما جهل سببه، ويطلق على ما علم سببه، ولكنه خارج عن العادة، خارج عن نظائره وأمثاله، مما يظهر ويلفت النظر، فالكلام هنا ليس بحثاً في السبب، إنما بيان للتعجب من حال هؤلاء.

قال رحمه الله تعالى: (**من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب**) الغـلاب هل هو من أسماء الله عز وجل؟ الجواب: ليس من أسماء الله عز وجل، ولكن ذكره المؤلف رحمه الله تعالى على وجه الصفة، ومعلوم أن باب الأوصاف أوسع من باب الأسماء، فالأسماء توقيفية، أما الأوصاف فهي أوسع وإن كان الأصل فيها التوقيف، لكنها أوسع من باب الأسماء، لأن الأسماء لابد فيها من توقيـف على الكتاب والسنة، أما الصفات فيمكن أن تشتق من الأفعال، فكل فعل ثبت لله عز وجل فإنه مشتق منه صفة لله سبحانه وتعالى، وقد جاء في بعض الروايات والآثار وصفه بالغالب، وهو من معاني اسمـه العزيز، فإن الغالب هو من معاني اسم العزيز كما تقدم، لأن من معاني العزّة: الغلبة والقهر.

قال رحمه الله: (**ستة أصول بينها الله تعالى بياناً واضحاً للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا. . .**) يعني: بعد هذا البيان الذي لا يتوقع بعده وقوع الخطأ، لأنه كان بياناً واضحاً، وما كان بيانه واضحاً ساطعاً يدركه عوام الناس، ولا يحتاج إلى علماء وأفذاذ، فإن ذلك المتوقع أن لا يكون فيه غلـط، وألاَّ يغفل عنه، وألاَّ يقع فيه خلاف لوضوحه وظهور أدلته وآياته.

قال رحمه الله: (**ثم بعد هذا غلط فيه كثير من أذكياء العالم**)

الذكاء: هو حدة في الفهم، يدرك بها الإنسان الغامض من الأمور، هذا هو الذكاء، ولا صلة بين الذكاء والإيمان، إنما الصلة بين الزكاء والإيمان، لأن الزكاء: في القلب، والذكاء: في الفهم، فقد يكون الإنسان ذكياً كافراً، لكنه لا يمكن أن يكون زكيّاً إلا إذا كان مؤمناً بالله ورسوله.

فقوله رحمه الله: (**أذكياء العالم**) أي: فطناؤه من أصحاب الفهم، الذين لا تخفـى علـيهم الأمـور، (**وعقلاء بني آدم إلاّ أقلّ القليل**)، يعني: غلط فيها كثير إلا أقل القليل الذين لم يغلطوا فيه، ونسأل الله عز وجل أن نكون ممن يدخل في قوله: ﴿ **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [(١)] وهذه هي حال بـني آدم، فإن أكثرهم ضالون، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾[(٢)] ولذلك لا يجوز في الاستدلال على صحة القـول أو المـذهب أو الطريقة بكثرة السالكين لها، فإن هذا أمر مهم، لأن الله عز وجل لم يذكر الكثرة على وجه المدح، بـل قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ وقـال الله سـبحانه

(١) سبأ: ١٣.
(٢) الأنعام: ١١٦.

وتعالى: ﴿ وَقَلِيْلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُوْرُ ﴾ وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1] فالكثرة لا تدل على صحة الطريق، ولا على سلامة المنهج، بل الذي يدل على صحة الطريق وسلامة المنهج هو التزام الكتاب والسنة، فهما الحاكمان على كل قول ورأي وعمل، فما وافق الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة فهو الصواب، وما خالفه فهو الخطأ المردود، وإن كان عليه أكثر الناس.

بدأ المؤلف رحمه الله من هذه الأصول بالأصل الذي هو الأصل الأصيل، وهو توحيد الله جل وعلا، فقال رحمه الله: (الأصل الأول. . .)

الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة، ثم لمّا صار على كثير من الأمة ما صار، أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين، والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم.

هذا هو الأصل الأول من الأصول الستة وهي أصول مهمة.

الأصل الأول: الأصل في هذه الدنيا، وفي هذا الوجود: هو عبادة الله جل وعلا، التي قال عنها الله جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُون ﴾[2] والتي جاء الأمر بها في أول الكتاب الحكيم، فإن أول أمر في كتاب الله هو الأمر بالتوحيد في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3] أول خطاب في كتاب الله الحكيم وجهه للناس عموماً: هو الأمر بالتوحيد، وهذا يدل على أهمية هذا الأمر، وخطورته، ووجوب العناية به.

قال رحمه الله تعالى: (**إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له**. . .) إخلاص: أي تخليص، فهو مصدر بمعنى: تخليص الدين، والدين: هو العمل المراد إخلاصه لله تعالى، أي: تخليص العمل، ومعنى تخليصه وإخلاصه: أي: تبرئته من كل لوث وشرك مع الله سبحانه وتعالى، فإخلاص العمل: هو تبرئته

---

(١) الشعراء : ٨ .
(٢) الذاريات : ٥٦ .
(٣) البقرة : ٢١ .

من كل نصيب لغير الله جل وعلا، هذا معنى إخلاص الدين لله، والدين كما ذكرنا المراد به العمل، ويشمل العمل القلبي وعمل الجوارح – العمل الظاهر –، فيشمل الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، ويشمل الأعمال الواجبة والأعمال المستحبة، فإن الجميع يجب إخلاصه لله سبحانه وتعالى،

هل هناك دليل في الكتاب يدل على أن الدين يأتي بمعنى العمل؟ الجواب: نعم، وهو قول الله تعالى: ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾[1] والآية التي ذكرها أيضاً: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2] أي: لكم عملكم ولي عملي، أما قوله تعالى ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[3] فالدين هنا بمعنى: الجزاء والحساب، وليس بمعنى العمل، فلا يستقيم أن يكون المعنى: مالك يوم العمل، لأن يوم العمل هو هذه الدنيا، أما الآخرة فليست دار عمل، إنما هي دار حساب وجزاء.

قال رحمه الله تعالى: **(إخلاص الدين لله وحده لا شريك له)** ألم يكن يكفي أن يقول: **(إخلاص الدين لله تعالى)** عن قوله: **(وحده لا شريك له)**، بلى: يكفي، لكن قوله: **(وحده لا شريك له)**، هذا تأكيد لمعنى الإخلاص، فـ" وحده ": تأكيد لمعنى التوحيد، " ولا شريك له ": تأكيد لمعنى نفي الشرك، وأنه لا شريك له سبحانه وتعالى في شيء من أموره، لا شريك له في ملكه، ولا شريك له في خلقه، ولا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له في إلهيته، ولا شريك له في أسمائه وصفاته، ولا شريك له فيما يجب له من العبادة، فيجب إفراد الله عز وجل بكل ما يستحق، فالله جل وعلا ليس كمثله شيء في شيء من شؤونه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[4].

ثم قال رحمه الله تعالى: **(وبيان ضده الذي هو الشرك)**

فضد التوحيد والإخلاص هو الشرك، والشرك: دائر على معنى واحد، وهو تسوية الله بغيره، كما إذا كانت التسوية فيما يتعلق بالخلق والرزق والملك والتدبير، بأن يعتقد العبد أن هناك خالقاً، أو رازقاً، أو مالكاً، أو مدبراً غير الله جل وعلا، تسوية الله ﷻ بغيره فيما يجب له من الأسماء والصفات، كأن يعتقد العبد أن صفات الله كصفات المخلوق، فهذا أيضاً من الشرك الذي يجب أن يتخلص منه المؤمن ليكمل توحيده وإيمانه من الشرك، وهو أخطرها، وأعظمها: الشرك في الإلهية، وهو الشرك في العبادة، ومعناه: أن يجعل مع الله من تُصْرَفُ له العبادة، فيصوم لغير الله، أو يصلي لغير الله، أو ينذر لغير الله، أو يذبح لغير

(١) الزمر : ٣ .
(٢) الكافرون : ٦ .
(٣) الفاتحة : ٤ .
(٤) الشورى : ١١

الله، أو يطوف تعبداً بقبر لغير الله، أو يصلي لغير الله، أو يدعو غير الله في دفع المدلهمات، أو كشف الكربات، وما إلى ذلك مما يكون من كثير من الناس، كل هذا من الشرك الذي جاءت الشريعة بالنهي عنه، والتحذير منه، وقد بين هذين الأمرين القرآن غاية البيان، بين التوحيد وبين الشرك.

ولذلك قال رحمه الله: (**وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل. . . .**) لا إشكال أن أكثر القرآن في تقرير هذا الأصل، وهو: وجوب إفراد الله بالعبادة، والنهي عن الشرك بجميع صوره، والقرآن كله توحيد، فهو يدعو إلى إخلاص العمل لله ﷻ، ويبين فضائل ومصالح التوحيد، ويبين عاقبة أهل التوحيد، هذا في جانب الدعوة إلى التوحيد، أما في جانب النهي عن الشرك فإن الله نهى عنه وحذر منه، وبين أنه ظلم عظيم، فقد بين الله جل وعلا سوء عاقبة الشرك على أهله في الدنيا قبل الآخرة.

وبين عاقبة المشركين وأنهم في نار تلظى، لعظم ما جاؤوا به واقترفوه، ﴿ **إِنَّ اَللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء** ﴾[1] فالله لا يغفر الشرك بالكلية، ويغفر مادون ذلك، وما هذا الامتناع من الرحيم الرحمن، البر الرؤوف إلاَّ لعظم الجرم، فإن الشرك ظلم عظيم، كما وصفه رب العالمين، فالقرآن كله بيان للتوحيد، وفضله وفضل عاقبته وعاقبة أهله، وبيان للشرك وسوء حال أهله في الدنيا قبل الآخرة، ولذلك كان بيان التوحيد في القرآن واضحاً لكل أحد.

ولذلك قال رحمه الله تعالى: (**وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى**) يعني: ليس من وجه واحد، وليس فقط بالأمر بالتوحيد، أو بالنهي عن الشرك، بل من جميع الوجوه، أمراً بالتوحيد، ونهيٌ عن الشرك، بيانٌ لمحاسن التوحيد، وبيانٌ لمساوئ الشرك، بيانٌ لعاقبة أهل التوحيد، وبيانٌ لعاقبة أهل الشرك من وجوه متعددة، ثم لما صار (**بكلام يفهمه أبلد العامة**)، يعني: لا يحتاج إلى فهم، ولا إلى قوة بلاغة، ولا إلى عظيم إدراك، حتى يصل الإنسان إلى فهم هذه المعاني، بل هي ظاهرة لكل أحد ﴿ **قُلْ هُوَ اَللهُ أَحَد** ﴾[2] فهذه الآية يدرك معناها كل أحدٍ من الناس، وأنه أحد فيما يجب له سبحانه وتعالى من الربوبية، والإلهية، والأسماء، والصفات.

(**ثم لما صار على كثير من الأمة ما صار**): يعني: من ترك الصراط المستقيم، والانحراف عن الهدي المستقيم هدي النبي ﷺ، لما صار ما صار (**أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم**)، وهذا هو دأب الشيطان أعاذنا الله وإياكم منه، فإنه يأتي للمؤمن ويظهر له

(١) النساء : ٤٨ .
(٢) الإخلاص : ١ .

الطاعة بثوبٍ قبيح، تنفر منه النفس وتزهد به، وتنصرف عنه، ويأتي للبدعة والمعصية ويكسوها أجمل الحلل، ويبهرجها ويزخرفها بأحسن الزخارف، حتى يقبل عليها من ضعف إيمانه، ولم يرسخ يقينه، وأما أهل الإيمان والبصائر فإنهم لا تغريهم هذه المظاهر، بل ينظرون إلى الأمور بالبصيرة التي يمنّ الله سبحانه وتعالى بها على المتقين، فيفرقون بين الحق والباطل، ولا تختلط عندهم هذه الأمور، بل هي في غاية الظهور، فيأتي الشيطان ويظهر الشرك بمظهر محبة الصالحين، ويظهر الداعين إلى التوحيد بأنهم لا يحبون الصالحين، ولا يعظمونهم حق تعظيمهم، فإذا جئت إلى رجلٍ وقلت له: يا أخي لا تتوجه إلى القبر في الدعاء، توجه إلى القبلة، واسأل ربك ورب هذا المقبور الذي يملك خزائن السماوات والأرض جلّ وعلا، ولا تسأل هذا المقبور الذي لا يملك لنفسه حولاً ولا طوْلاً، قال: يا أخي أنت ما تعرف قدر الصالحين ولا تقدر أولياء الله، وهذا في الحقيقة من جهله لم يقدر الله حق قدره، لو قدر الله حق قدره ما توجه إلى مقبور بين التراب، إنما توجه إلى رب الأرباب، لكن لضعف يقينه وقلة بصيرته انطلت عليه هذه الصورة، وجعل تعظيم أهل القبور والصالحين بالانحناء لهم، والركوع أو السجود، وغير ذلك مما يفعله أهل الشرك، والذين يزيِّنون البدعة، كل هذا مما يخالف هدي النبي ﷺ، ومما يوقع في الشرك، الواجب على المؤمن أن يبعد نفسه عن كل ما خالف هدي النبي ﷺ، وأن يعلم أن خير الهدي هدي النبي ﷺ، وإذا وقع المؤمن في شيء من هذا فإن الشيطان سيزيِّنه له، لكن إن راجع المؤمن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي السلف الصالح سلم من هذه الشبه.

وليعلم أنه لا أحد أعظم اتباعاً للكتاب والسنة من رجل جعل الله ﷻ هو قصده، وهو معبوده، الذي لا يصرف إلى غيره نوعاً من العبادة، فليحذر المؤمن، فالشيطان يأتي إلى هؤلاء ويزين لهم الشرك، ويقول لهم: هذا ليس شركاً، إنما هذا من إجلال الصالحين، ومن تعظيمهم، وحتى ينفرهم من دعوة التوحيد يقول: هؤلاء إنما يدعون إلى تنقص الصالحين والوقيعة فيهم، ولا يعظمونهم ولا يقدرونهم حق قدرهم، وهذه شبهة ضعيفة لا تنطلي إلاّ على ضعاف العقول.

ولذلك قال المؤلف رحمه الله تعالى: (**أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين، والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم. . .**) والصحيح أنها غلو في الصالحين، وتجاوز للحد المنهي عن تجاوزه، وإلاّ فالمؤمن لا يقع في هذا ولا يقرب منه، بل لا يعظم إلاّ ما عظمه الله ورسوله، ثم إن محبة الصالحين عبادة، لكن لا يجوز أن يتجاوز المؤمن في هذه

العبادة حده، حتى يقع في الشرك، هذا هو الأصل الأول الذي ذكره المؤلف رحمه الله في هذه الأصـــول الستة.

الدرس الثاني

الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه. فبين الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام. ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا. وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرق فيه، ويزيده وضوحاً ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه من العلم والفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون.

.

يقول الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**الأصل الثاني**) أي: من الأصول التي دل عليها القرآن، وجاءت بها السنة على وجه الاستفاضة، قال: (**أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه**) أمر الله سبحانه وتعالى بالاجتماع في الدين والاجتماع في الدين لا يمكن أن يتحقق إلاّ بالاعتصام بالكتاب الحكيم، والأخذ بسنة خاتم النبيين ﷺ، والسير على صراط الصحابة والتابعين من خير القرون، هذه الأمور الثلاثة، بها يحصل الاجتماع في الدين، ومن غيرها لا يمكن أن يحصل الاجتماع، بل غيرها هو الفرقة التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها، وحذر منها رسوله ﷺ، أمر الله ﷻ بالاجتماع في الدين في آيات كثيرة. كما أنه نهى عن الفرقة في آيات كثيرة، فمن الاجتماع في الدين قوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[(١)] هذا هو الذي شرعه الله ﷻ لهذه الأمة، كما أنه أمر به من تقدم من الرسل، وأمره للرسل أمر للأمم، فإن الله عز وجل أمر الرسل وأمر أممهم بإقامة الدين، ﴿ **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ وإقامة الدين لا تتحقق إلاّ بالأخذ بالكتاب الحكيم وسنة سيد المرسلين، ﷺ، فالواجب على الأمة إذا أرادت الاجتماع أن تنبذ ماعدا هذين الوحيين، كتاب الله، وسنة النبي ﷺ، وما أجمع عليه السلف، لأن ما أجمع عليه سلف الأمة لابد أن يكون له دليل من الكتاب أو السنة، وقد قال الله جل وعلا في بيان ذلك: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾[(٢)] وحبله: هو شرعه الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ، فالأمر بالاجتماع ليس مجرد الاتفاق على أي وجهٍ كان، كما يدعو إليه بعض الذين قل

---

(١) الشورى : ١٣ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

نصيبهم من العلم، فيقول: الواجب على الأمة أن تجتمع مذاهبها على اختلافها، وعلى تناحرها، هذا هو الواجب على الأمة في نظره، نحن نقول: هذا هو الواجب، لكن مع أمرك بالاجتماع لا بد أن تبين طريق الاجتماع، وهو ما بينه الله في كتابه، أما أن تطلق الدعوة إلى الاجتماع دون بيان الطريق الموصل للاجتماع، فهذا لا يحقق المقصود، لأن الله لما أمر بالاجتماع لم يأمر به مطلقاً، بل أمر به أمراً واضحاً، مقيداً له بالاعتصام بحبل الله تعالى على ما جاء به رسول الله ﷺ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ وقال جلّ وعلا: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[(١)] وإقامته لا تكون إلا بالأخذ من مصادره الأصيلة الكتاب والسنة، فأمر الله بالاجتماع والنهي عن التفرق، هذا مما دل عليه الكتاب والسنة دلالةً واضحة، ولذلك قال المؤلف رحمه الله: (**فبين الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام**) يعني: لا يختلط، ولا يحتاج إلى عميق نظر وكبير تأمل، حتى يتوصل الإنسان لهذه النتيجة، بل هي واضحة بينة، لكل من أحسن قراءة الكتاب، أو سمع القرآن، فإن الله سبحانه وتعالى أمر بذلك أمراً واحداً، وأما النهي عن الفرقة فإنه كثير، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾[(٢)].

ثم قال رحمه الله: (**ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا**) نهانا كما سمعتم في الآية: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ وقوله: جلّ وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[(٣)]. والآيات التي تحذر من التفرق في الدين كثيرة جداً، واعلم أن التفرق في الدين له أسبابٌ كثيرة، لكن الذي يجمع هذه الأسباب على اختلافها وتنوعها هو الإعراض عن الكتاب والسنة، وهدي السلف الصالح، فبقدر ما يحصل عند الناس من الإعراض عن هذه الأمور، يحصل بينهم بقدر إعراضهم من الفرقة والاختلاف، لأن الناس إذا أعرضوا عن الكتاب والسنة إلى ماذا يرجعون؟ إلى أهوائهم، إلى آرائهم، إلى أذواقهم، إلى ما يشتهون، إلى ما يحبون، وهل هذا مما يتفق فيه الناس؟ الجواب: أن هذا مما يختلف فيه الناس اختلافاً عظيماً، اختلاف الناس في آرائهم وأقوالهم وعقولهم وما يحبون أشد وأعظم من اختلافهم في ألوانهم، وأجناسهم، وألسنتهم، الآن لو أردنا أن نحصي ما يتكلم به الناس من لسانٍ، يعني: لو أردنا أن نحصي اللغات، هل نستطيع إحصاءها؟

(١) الشورى : ١٣ .
(٢) آل عمران : ١٠٥ .
(٣) الأنعام : ١٥٩ .

الجواب: أننا لا نستطيع، لأنها كثيرة جداً متنوعة، حتى اللغة الواحدة يتفرع عنها لغات عديدة، فاختلاف الناس في آرائهم وعقولهم أشد من اختلافهم في لغاتهم، وأشد من اختلافهم في ألسنتهم، وأشد من اختلافهم في ألوانهم، ولذلك فالمرجع الذي يجتمع عليه الناس ولا يختلفون فيه ولا يختلفون عليه: هو الكتاب والسنة، وعلى ذلك فمن دعا إليهما فهو الداعي إلى الاجتماع، ومن دعا إلى غيرهما فهو الداعي إلى الفرقة، إذا عرفنا الجامع لأسباب الفرقة، والجامع لأسباب الاجتماع، فأعظم أسباب الفرقة البغي، والبغي: هو مجاوزة الحد، ويقابله العلم، فإن العلم من أعظم أسباب الاجتماع، لأنه كلما كثر علم الإنسان ورسخ كان داعياً إلى الاجتماع، ونبذ الفرقة، ومن البغي الذي يسبب الفرقة والاختلاف: الحسد والكبر، والحسد: هو كراهية ما أنعم الله به على الغير، ولو لم يتمنَّ زواله، كل من كره ما أنعم الله به على غيره في دينٍ أو دنيا فهو حاسد، سواء تمنى أن تزول النعمة أو لم يتمنَّ ذلك، انتبه إلى هذا ! لأن بعض الناس يظن أن الحسد: هو تمني زوال النعمة عن الغير، وهذا تعريف قاصر للحسد، بل الحسد: هو أن يكره الإنسان ما منَّ الله به على غيره من النعم الدينية، أو النعم الدنيوية، والكبر أيضاً هو سبب من أسباب الفرقة والاختلاف، لأن الكبر يحمل الإنسان على رد الحق، لأنه يأنف ويستعلي أن يأخذ الحق من غيره، يقول: أنا آخذ الحق من هذا، ما الذي تميز به علي؟ أنا أحسن منه في كذا، إما في مالٍ أو في جاه، أو في منصب، أو في نسب، أو في لون، ويرد الحق بسبب كبره، فتقع الفرقة.

قال: **(وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في دينهم، ونهاهم عن التفرّق فيه ويزيده وضوحاً)** أي: هذا الأصل، **(ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك،)** والعجب العجاب: أن الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، كما قال النبي ﷺ: **((افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة))**(١). ولذلك يجب على المؤمن أن يحرص على أن يكون من هذه الواحدة التي بشرها رسول الله ﷺ بالنجاة، وما هي صفتها؟ صفتها جاءت في سنة رسول الله ﷺ، فإنه قال في رواية الترمذي لما سئل عن الفرقة الناجية قال: **((هم من كان على ما أنا عليه وأصحابي))**(٢) وفي رواية أخرى قال: **((هي الجماعة))**(٣) والجماعة: هم المجتمعون على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان برقم ٢٥٦٤ وأخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٢٠٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان برقم ٢٥٦٥

(٣)أخرجه ابن ماجه في الفتن برقم ٣٩٨١

قال رحمه الله تعالى: (**ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين، وفروعه من العلم والفقه في الدين**)، أصول الدين: أي مسائل الاعتقاد، وفروعه: أي مسائل الفقه، وهذا لا إشكال فيه، فقد أصبح الأمر على خلاف ما أمر الله به، فأصبح الناس يدعون إلى فرقٍ وإلى مذاهب شتى، ويعدون أن الدعوة إلى هذه الفرق وإلى هذه المذاهب وإلى هذه الأحزاب هي الموصلة إلى ما دعت إليه الرسل، والرسل لم تدعُ إلى مذهب معين، إنما دعت لعبادة رب العالمين، ودعت إلى صراط الله المستقيم، إلى كلمة سواء، وهي أن يخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، وأن يطيعوا الله عز وجل فيما أمر، وأن يتركوا ما عنه نهى وزجر.

ثم قال رحمه الله تعالى: (**وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون**) أي: صار من يأمر الناس بالإقبال على الكتاب والسنة، ونبذ الأقوال المخالفة مهما كانت مصادرها، سواءٌ كانت في الاعتقاد، أو في الفقه، إذا دعاهم إلى الأخذ بالكتاب والسنة والإعراض عما خالف ذلك وصفوه بالزندقة، أو بالجنون، والزندقة والزنديق في كلام السلف: هو المنافق، فقوله: (**إلاَّ زنديق**) أي: إلاَّ منافق، (**أو مجنون**)، أي: فاقد العقل، والزنديق: هو فاسد الدين، والمجنون: هو فاقد العقل، فيصفونه بأحد هذين الوصفين، وهو نظير ما وصف به الجاهلون رسول الله ﷺ، والأمر كما قال الله جل وعلا: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾(١) أي: إن هذه المقولة سببها الطغيان والخروج عن الصراط المستقيم.

إذاً: الواجب على كل مؤمنٍ أن يسعى إلى الاجتماع، وأن يأمر به، وأن يحث عليه، لكن ما هو الاجتماع الذي دعت النصوص إلى الأخذ به؟ هو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً﴾(٢) والحبل: هو الشرع، والحبل في هذه الآية هو شرع الله المتين الذي جاء به رسول الله ﷺ، ويستقى من الكتاب، والسنة، والإجماع.

(١) الذاريات : ٥٣ .
(٢) آل عمران : ١٠٣ .

الدرس الثالث

الأصل الثالث: أن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشيّاً. فبين الله له هذا بياناً شائعاً كافياً بوجوه من أنواع البيان شرعاً وقدراً، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به؟

هذا الأصل الثالث هو تابع للذي قبله.

ولذلك قال المؤلف رحمه الله تعالى: (**أن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشيّاً**)، يعني: الذي أمر الله به، **السمع والطاعة لمن تأمر علينا**، أي: لمن ولي أمرنا، و**السمع**: هو القبول، و**الطاعة**: هي الانقياد والامتثال، وهما مقرونان في كثيرٍ من المواضع، قال الله جل وعلا في كتابه في آخر سورة البقرة: ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[1] وقال النبي ﷺ: ((**لا تقولوا سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا**))[2]. فالسماع المراد به: القبول، والطاعة المراد بها: الامتثال والعمل، فالواجب على الأمة لتحقيق الاجتماع أن تسمع، وأن تطيع لمن ولي أمرها. ولذلك قال رحمه الله تعالى: (**لمن تأمر علينا، ولو كان عبداً حبشيّاً**) وهذا هو الذي أمر به النبي ﷺ أصحابه، ووعظهم به، وأمر به الأمة أن تسمع، وأن تطيع، ولو تأمر عليهم من يحتقرونه، ولذلك قال: (**ولو كان عبداً حبشياً**) لاسيما في ذلك الوقت الذي يكون مثل هذا في غاية الدنو عند أهل ذلك العصر، لأن العبد الحبشي في ذلك الوقت كان الغالب أنه يستعبد، وأن يؤمر، لا أن يترأس ويأمر، فلما أمرهم النبي ﷺ بهذا دل على أنه يجب عليهم أن يمتثلوا أمر من ولاه الله أمرهم، وأن يكون حالهم مع أمرائهم وهم من ولّاهم الله عليهم أن يكونوا بين سمعٍ وطاعة، يسمعون ويطيعون،.

وقوله: (**ولو كان عبداً حبشياً**) هذا من حيث اللون والجنس، أي: الأصل أما من حيث الحال، يعني: من حيث حال من تولى، فهل يلزم أن يكون على طاعةٍ وبر؟ الجواب: لا يلزم، ولذلك قال النبي ﷺ في الصحيح: سواء فيما يتعلق به، أو فيما يتعلق بغيره: ((**من رأى من أميره ما يكره فليصبر عليه**))[3]

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، برقم : ١٧٩، وبرقم : ١٨٠، وأخرجه الترمذي، في تفسير القرآن، برقم : ٢٩١٨، وأحمد، في مسند بني هاشم، برقم : ١٩٦٦، ورقم : ٢٩١١ .

(٣) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٦٥٣١ وأخرجه مسلم في الإمارة برقم ٣٤٣٩.

فأمر النبي ﷺ بأن يصبر عليه سواء رأى من الأمير ما يكرهه وهو يتعلق به أو بغيره، ثم بعد هذا الأمر جاء بالوعيد فقال: ((من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية))(١) أي: مات على غير الطريقة السلفية، على غير الطريقة النبوية، هذا مما يتعلق بحال الأمير من حيث الاستقامة، ولذلك كان من عقيدة أهل السنة والجماعة السمع والطاعة، والجهاد، والصلاة، والحج خلف الأمراء، أبراراً كانوا أو فجاراً، وبهذا تستقيم أحوال الناس، ولا استقامة لأحوال الناس إلاَّ بهذا، فإنه إذا كره الإنسان من أميره فالواجب عليه أن يصبر، ولذلك لما أخبر النبي ﷺ بأنه ستكون بعده أثرة أخبر بذلك أصحابه، ثم سألوه: فما الواجب؟ قال: ((أدوا الحق الذي عليكم، واسألوا الله الذي لكم))(٢) وهذا معناه أن يصبروا.

ثم قال المؤلف رحمه الله تعالى في بيان هذا الأصل: **(فبين الله له هذا بياناً شائعاً كافياً بوجوه من أنواع البيان شرعاً وقدراً)**، فمن الشرع قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾(٣) وقول النبي ﷺ: ((على المرء المسلم السمع والطاعة في ما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))(٤). والأحاديث والأدلة في هذا كثيرة، وأما قوله: **وقدراً**، أي: بين الله هذا قدراً، فما من فئة خالفت هذا الأمر إلا ودب فيها الخلاف، ووقعت في الفرقة والتراع، والقتال، وأكبر شاهد على هذا: ما وقع في خلافة عثمان ﷺ، فإنه لما خرجوا عليه وقع السيف في الأمة، ووقع القتال والخلاف المعروف المشهور، وهذا هو حال كل من سعى في مخالفة ما أمر به النبي ﷺ من الاجتماع على من ولاه الله أمر الأمة.

ثم قال رحمه الله تعالى: **(ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم، فكيف العمل به)** وهذا واقع، ولذلك تجد أن كثيراً ممن يخالف أهل السنة والجماعة لا يذكرون هذا الأصل، فليس من أصولهم: السمع والطاعة لولاة الأمر، بل من أصولهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يعني الخروج على الأئمة ومنابذتهم، ومقاتلتهم، وهذا مشهور عند الخوارج، والمعتزلة، وغيرهم من الفرق الضالة.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسند المكيين، برقم : ١٥١٢٧، ورقم : ١٥١٣٧ .
(٢) أخرجه في مسند المكثرين، برقم : ٣٤٨٥ .
(٣) النساء : ٥٩ .
(٤) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ٣٤٢٣.

الدرس الرابع

الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم وقد بين الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم﴾(١) إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَا بَنِي إِسْرائيل﴾(٢) ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم.

هذا هو الأصل الرابع في هذه الرسالة المباركة، وهذا الأصل ملخصه هو أن الشريعة جاءت ببيان العلم النافع وحَمَلَته، وبينت الضلال وصفات أهله بياناً واضحاً لا لبس فيه ولا شك ولا شبهة فيه ولا ريب، فلا يلتبس الحق بالباطل، ولا يلتبس العلم بالجهل، ولا يلتبس الفقه بغيره لمن قرأ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال رحمه الله تعالى: (**الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء**)، العلم: وهو موضوع هذا الأصل، والعلماء: وهم حملة هذا العلم، والفقه: أي هذا الأصل مخصوص ببيان حقيقة الفقه ومن هم الفقهاء، وليس مراد المؤلف رحمه الله بالفقه هنا معناه بالاصطلاح الخاص، الذي هو: معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، بل المراد بالفقه هنا: إدراك الشريعة وفهمها، وهو المقصود بقول النبي ﷺ: ((**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**))(٣) فليس المراد بذلك معرفة الأحكام الشرعية التفصيلية فقط.

قال رحمه الله تعالى: (**وبيان من تشبه بهم وليس منهم**) تشبه بهم أي: بالعلماء والفقهاء، وليس منهم أي: وحاله في الحقيقة ليس منهم، وذلك بأن الله سبحانه وتعالى بين صفات العلماء الربانيين، وبين من

---

(١) البقرة: ٤٠.

(٢) البقرة: ١٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم، برقم : ٦٩، وفي فرض الخمس، برقم : ٢٨٨٤، وأخرجه مسلم في الزكاة، برقم : ١٧١٩، و ١٧٢١، وفي الإمارة، برقم : ٣٥٤٩، وأخرجه غيرهما من أصحاب السنن والمسانيد.

تشبه بهم في أخذه بالعلم، ولكنه لم يكن هذا العلم قد آتى ثماره، وحصّل به حامله مقصوده، لأن العلم يحمله من الناس صنفان: عامل به، فذاك الموفق المحصل للمقصود، ومهمل له، وذاك الخاسر المحروم، لأن من تعلم العلم و لم يعمل به كان حجةً عليه، كما قال النبي ﷺ: ((والقرآن حجة لك أو عليك))[1] وحجة لمن أخذ به وقرأه، وعمل به، وهو حجة على من أخذ به وأعرض عنه، أخذ به، يعني: قراءةً وأعرض عنه، وكذلك حجة لمن أعرض ابتداءً لا قراءة، ولا عمل، فكلاهما يدخل في كون القرآن حجة عليه، لكن من أخذ بالقرآن وأعرض عنه، فإنه أعظم جرماً ممن لم يأخذه من الأصل، والسبب: أن من أخذ القرآن فقد أبصر، وصار عنده آلة الاهتداء، وسبب سلوك الطريق المستقيم، بخلاف الذي أعرض عنه بالكلية، فإنه لم ينل البصيرة، و لم يحمل النور، ولذلك كان الذم للجهل في بعض الآيات، والذم الشديد الذي ورد في القرآن هو لمن أخذ القرآن وأعرض عنه، فأسوأ مثلين ذكرهما الله عز وجل في كتابه هما: فيمن أخذ العلم و لم يعمل به، قال الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾[2] آتيناه آياتنا أي: البينات الواضحات، فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فانسلخ منها كما يسلخ الجلد من الشاة، أي: لم يبقَ معه شيء منها، كما أنك إذا سلخت الشاة لا يبقى شيء من جلدها عليها، فكذلك الواقع في هذا الذي منّ الله عليه بالعلم، و لم ينتفع به، ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾[3] هذا فيه بيان أن الضلال والانحراف كان منه، مأخوذ من قوله: ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ومن قوله: ﴿ أَخْلَدَ﴾ وأعانه على هذا اتباع الشيطان له، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي: إنه في عناءٍ دائم، ولهثٍ غير منقطع عند قيام سببه، وعند عدم قيام سببه، وذلك أنه أعرض عن النور والهدى بعد البصر، وهو من أشد ما يكون على القلب أن يعرض الإنسان بعد البصيرة، والمثل الثاني في سورة الجمعة، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[4] فجعل إعراضهم عن مقتضى ما حملوه من العلم التكذيب، ومقتضى

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة، برقم : ٣٢٨، والترمذي في الدعوات، برقم : ٣٤٣٩، والنسائي في الزكاة، ٢٣٩٤، وابن ماجه في الطهارة وسننها، برقم : ٢٧٦، وأحمد في باقي مسند الأنصار، برقم : ٢١٨٣٤، والدارمي في الطهارة، برقم : ٦٥١.

(٢) الأعراف : ١٧٥ .

(٣) الأعراف : ١٧٥- ١٧٦.

(٤) الجمعة : ٥ .

ذلك أنهم كذَّبوا بما حملوا من العلم، لأنهم لو كانوا صادقين مصدِّقين لهذا العلم لعملوا به، فلا يمكن لإنسانٍ أن يصدق ويعتقد ما يحمله من العلم أن يعرض عنه، وأن يتخلى عنه.

وهذا في الإعراض الكلي، أما كون الإنسان يخالف ما علمه في بعض الأحيان بداعي الهوى، أو الشهوة، فهذا يقع، ولكنه لا يستمر على الإعراض، ولا يستمر على الانسلاخ، بل يعود ويستعتب، ويستغفر، ويرجع. المهم: أن كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة رسوله ﷺ بينا العلم النافع، وبينا أهله بياناً واضحاً شافياً، وميَّزا ذلك عما يلتبس بهما من مدعي العلم، الذين هم في الحقيقة دعاة على أبواب جهنم يدعون الناس إلى النار، بأفعالهم، بل في بعض الأحيان بآرائهم، وأقوالهم، حيث إنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويسوِّغون للناس الشرّ والضلال، وبيان من تشبه بهم وليس منهم، وقد بين الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[1] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[2]. فإن الله عز وجل قص في هذه السورة نبأ اليهود، وما كان منهم من تكذيبٍ وإعراض، وما قابلوا به الدعوة، ذكّرهم جل وعلا بعظيم ما أنعم عليهم من العلم والهدى والاصطفاء وغير ذلك، وما كانوا عليه، وكيف قابلوا تلك النعم، فكانت حجةً عليهم لا حجةً لهم.

ثم قال رحمه الله تعالى: **(ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات)**، **ويزيده وضوحاً** أي: يزيد هذا الأصل وضوحاً وبياناً: **ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد**، أي: الذي ضعف إدراكه، وقلّ ذكاؤوه، **ثم صار هذا أغربَ شيءٍ**، يعني: أغرب الأشياء، **وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات**، وهذا من الانحراف الكبير، فإن العلم واضح، وهو العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما كان عليه السلف الصالح، وماعداه فهو جهل، بخلاف الحال في كثيرٍ من الأحيان، حيث يعد تشقيق الكلام بما لا يدل عليه الكتاب والسنة، وتفريعه بما يحصل به قسوة القلب هو: العلم، وإذا ذكَّرهم الإنسان بقول الله، أو بقول رسوله ﷺ قالوا: هذه ظاهرية، هذا جمود على النصوص، هذا كذا وكذا. . . ، وخلعوا عليه من الألقاب والأوصاف ما يزهد الناس في الإقبال على الكتاب والسنة، وما يجرِّئهم على الوقوع في البدعة، والدعوة إلى الضلالة، وهذا

---

(١) البقرة : ٤٠ .

(٢) البقرة : ١٢٢.

منحى خطير، ومسلك يجب على المؤمن أن يحذر منه، فإنه لا يحصل كمال الإيمان، ولا تمام الانقياد للنبي ﷺ إلاّ بالتسليم بالنصوص، فبقدر ما مع الإنسان من تعظيم الوحيين والعمل بهما يكون حظه ونصيبه من العلم والعمل به، ومن المهم لنا نحن طلبةَ العلم ومن يشتغل بطلب العلم: أن نعرف ونتلمس صفاتِ العلم النافع، ولذلك نطلب منكم أن نجمع ما هي صفات العلم النافع من خلال الكتاب والسنة، وكلام السلف، لأن فيهما من الإشارات إلى العلم النافع ما ينبغي لنا أن نقف عليه، حتى نعرف ما الذي ينفع فنأخذه ونقبل عليه، وما الذي لا يدخل في إطار العلم النافع فنشتغل بغيره عنه، لأن العلم كثير.

ثم قال رحمه الله تعالى: **(وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل)** وهذا هو شأن كل من أعرض عن الكتاب والسنة، فإنه في لبسٍ وخلط وتخبط وتناقضٍ واضطراب، **(وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به – على حدِّ فهم هؤلاء الناكبين عن الصراط – إلاَّ زنديقٌ أو مجنون،)** يعني: في تقييم الناس كما تقدم ذلك، فالناس يصفون من تكلم بالعلم من الكتاب والسنة بهذين الوصفين، ولكن هذا ولله الحمد ليس هو الغالب، لاسيما في زماننا هذا، بل من تكلم بالحقِّ والهدى فمهما وصف من الأوصاف المقذعة القبيحة فإن الله تعالى يدفع عنه، والعاقبة للمتقين.

ثم قال رحمه الله تعالى: **(وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم. . .)** ولا يخفى عليكم أن الشيخ رحمه الله عاش في عصرٍ أصبح المتكلم آنذاك بالكتاب والسنة والداعي إلى نبذ الشرك والبدعة غريباً بين الناس، بل يُتهم بما ذكره رحمه الله من الزندقة، والجنون، والخروج عن سنن العلماء، والخروج عن طريقة أهل العلم، وصار الذي يؤلف ويناصر: هو من مشى على تقرير ما عليه عامة الناس من البدع والشرك وتعظيم غير الله، فهذا هو العالم الجهبذ المتبع من جهّال الناس ومبتدعيهم.

فالشيخ رحمه الله يتكلم عن زمانه، وقد فتح الله ﷻ بعد ذلك ببركة دعوته ودعوة من تلاه من أئمة الدعوة وأهل العلم، في كل عصرٍ ومصر، وهم أهل العلم المتبعون للكتاب والسنة من أهل السنة والجماعة، السائرون على طريق السلف الصالح ما جعل القول بالكتاب والسنة هو الحجة والبرهان، والذي تطمئن إليه النفوس، ومن نعمة الله أن الدعوة السلفية تكتسح الدعوات اكتساحاً بالغاً واضحاً، وهذا من نعمة الله ﷻ على هذه الأمة، وهو تصديق قول النبي ﷺ: **((لا تزال طائفة من أمتي على**

الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك))[1] فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم، وأن يحشرنا في زمرتهم.

(١) أخرجه الترمذي في الفتن والملاحم، برقم : ٣٧١٠، و رقم : ٢١٥٥، وابن ماجه في المقدمة، برقم : ١٠ وأحمد في باقي مسند الأنصار، برقم : ٢١٢٨٦، ورقم : ٢١٣٦١، ورقم : ٢١٣٦٩.

الدرس الخامس

الأصل الخامس: بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله والمنافقين والفجار. ويكفي في هذا آية في سورة آل عمران وهي قوله: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (١)، وآية في سورة المائدة وهي قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾(٢)، وآية في سورة يونس وهي قوله: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣)، ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن أولياء الله لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل ومن تبعهم فليس منهم ولابد من ترك الجهاد فمن جاهد فليس منهم ولابد من ترك الإيمان والتقوى فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم. . يا ربنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد. .

فهذا هو الأصل الخامس من هذه الأصول الستة المفيدة العظيمة، قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى في هذا الأصل: (**بيان الله سبحانه لأولياء الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله والمنافقين والفجار**).

هذا كالعنوان لهذا الأصل، فإن الشيخ رحمه الله يريد أن يقرر في هذا الأصل أن القرآن الكريم قد بين بياناً واضحاً لا لبس فيه ولا اشتباه، ولا شك في الفرق بين أولياء الله وبين أولياء الشيطان، فإن أولياء الله أولياء الرحمن، لهم أوصاف ميَّزهم الله سبحانه وتعالى بها في كتابه، وذكر ذلك لئلا يشتبه حال أولياء الله بأولياء الشيطان، لأن من أولياء الشيطان من يلبِّس على الناس، فيظهر ولايته للرحمن، وأنه من عباد الله الصالحين، ومن الأتقياء الأنقياء، والأمر على خلاف ذلك، فلما كان مدّعو الولاية كُثُراً بين الله سبحانه وتعالى الفصل بين هؤلاء وبين غيرهم، وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالةً لطيفةً سمّاها

(١) آل عمران : ٣١.
(٢) المائدة : ٥٤.
(٣) يونس : ٦٢.

(الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ذكر فيها ما وصف الله سبحانه وتعالى به أولياءه، وما ميزهم به عن أولياء الشيطان، وذكر فيها أشياء كثيرةً مفيدة، لعل الله ييسر قراءهما.

قال رحمه الله تعالى: (**بيان الله سبحانه لأولياء الله**) أولياء: جمع ولي، والولي مأخوذ من الولاية، والولاية مصدر من ولي، وهي بمعنى القرب، تقول: ولي كذا وكذا أي: قرب منه، وعلى هذا فإن الولاية تدور على أمرين: على المحبة، والنصرة، وقد أثبت الله جل وعلا في كتابه ولايته لبعض خلقه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] فأثبت سبحانه ولايته للمؤمنين، كما أن الله سبحانه وتعالى نفى أن يكون له وليٌّ، لكن الولي المنفي غير الولي المثبت، فالولي المنفي مقيد، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾[2] أي: لم يكن له وليٌّ يستنصر ويعتز ويتقوى به، فولاية الله ﷻ لمن يتولاهم ليست عن حاجة، ولا عن افتقار، بل هو الغني الحميد جل وعلا، وإنما ولايته سبحانه وتعالى لمن يتولاه هي ولاية رحمة، ومنة، وفضيلة، ومنحة منه جل وعلا، وإكرامٍ لمن يتولاه، نسأل الله أن نكون منهم. إذاً عرفنا أن الولاية المثبتة لله ﷻ غير الولاية المنفية، وأن الولاية تدور على معنيين على اختلاف مواردها، المحبة، والنصرة، ويقابل الولاية العداوة، وهي دائرة على البغضاء والكره، هذا معنى العداوة، فأعداء الله هم من أبْغَضَهم سبحانه وتعالى، وأبعدهم، وكرههم جل وعلا، فالعداوة مبنية على الإبعاد، والكره، والبغض، والولاية مبنية على المحبة، والنصرة، والله سبحانه وتعالى قد بين أوصاف أوليائه، وقد لخص الشيخ رحمه الله هذه الأوصاف المذكورة في كتابة، في هذا المقطع القصير من كلامه رحمه الله، لكن من المهم: أن نفرق بين أولياء الله وغيرهم، حتى لا يشتبه الأمر، فأولياء الله ﷻ لا يتميزون عن غيرهم بمظهر، هم كغيرهم من أهل الإسلام، لا يتميزون عنهم بلباس، ولا بهيئة، لكنهم يتميزون عن غيرهم بعملهم الصالح، فالمظاهر لا تمييز فيها، لكن المخابر والأعمال هي التي يدور عليها التمييز بين أولياء الله وأولياء الشيطان، وبين غيرهم من الناس، فما هو العمل الذي يميز أولياء الله عن غيرهم؟

قال رحمه الله تعال في بيان ذلك: (**ويكفي في هذا**) أي: في بيان الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان، (**آية في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾**)[3] فقوله تعالى: ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ هذا هو المعيار الفارق، والميزان الدقيق، لبيان حقيقة

---

(١) البقرة : ٢٥٧ .

(٢) الإسراء : ١١١ .

(٣) آل عمران : ٣١ .

الولاية، فالولاية التي يثبت بها للمؤمن الانتساب إلى الله بالولاية هي: أن يكون متبعاً للنبي ﷺ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فعلى قدر ما يكون مع الإنسان من اتباع هدي النبي ﷺ فإنه يكون عنده بقدر ذلك من ولاية الله له، وبقدر ما يحصل منه من التقصير فإنه ينقص عنه من ولاية الله له بقدر ما حصل منه من التقصير، والناس في هذا درجات متفاوتة، لا يحدها وصف، إذاً السمة الأولى لأولياء الله التي يتميزون بها عن غيرهم: هي اتباع النبي ﷺ، واتباع النبي ﷺ يكون في أمرين: فيما فرض، وهذا أول ما يكون، وفيما ندب إليه من الأعمال، وهذه بالدرجة الثانية، ولذلك كان في حديث الولاية قول النبي ﷺ: قال الله تعالى: ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب))(١) ثم قال بعد أن ذكر جزاء الأولياء، وانتصار الله لهم قال: ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل)) وهذا طريق تحصيل الولاية، ((وما تقرب إلي عبدي بأحبَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)) فذكر الطريقين اللذين يحصل بهما ولاية الله ﷻ، وهذا تفصيل لا إجمال، تفصيل لما أجملته هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ فالاتباع للنبي ﷺ يكون في الفرائض أولاً، لأنها أحب ما يتقرب به إلى الله ﷻ، ثم بالنوافل ثانياً، وهذا في الدرجة الثانية ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ وإذا أحب الله عبداً فقد تولاه.

ثم قال رحمه الله تعالى: (وآية في سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾(٢) وهذا فيه الإشارة إلى معنى الولاية، وأنها دائرة على المحبة في قوله تعالى: ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾(٣) وهنا قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ثم ذكر أوصافهم فقال: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ فذكر ثلاثة أوصاف، الوصف الأول: أذلة على المؤمنين، فلا علو عندهم، ولا استكبار، ولا ارتفاع، الوصف الثاني: أعزةٍ على الكافرين، لا يذلون لهم، لأنَّ معهم سبب العزة، وهو الإيمان بالله ورسوله، الوصف الثالث: الجهاد في سبيل الله، وهو شامل لجهاد النفس، ولجميع أنواع الجهاد، وأعلاها جهاد الكفار المعاندين لله ورسله، هذا من أوصافهم، والجهاد لا يأخذ صورةً واحدة فقط، فلا يقتصر على الجهاد بالسيف والسنان، بل هناك جهاد آخر، قد يكون أعظم منه، وهو جهاد العلم والبيان، فالذي يبلغ

(١) أخرجه البخاري في الرقائق، برقم : ٦٠٢١ .

(٢) المائدة : ٥٤ .

(٣) آل عمران : ٣١ .

شريعة الله ﷻ وينصح الناس، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر هو من المجاهدين الذين يدخلون في قوله في هذه الآية في آية المائدة: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ فهذا يشمل جميع أنواع الجهاد. إذاً الآن زاد عندنا وصف، أو هذا تفصيل؟ بل هذا تفصيل لأن قوله: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ هذا فيه بيان مجمل هدي النبي ﷺ في كل شأن، وهنا فيه ذكر صفات خاصة، وتخصيصها لعظيم أثرها في تحقيق وتحصيل الولاية.

ثم قال: **وآية في سورة يونس وهي قوله: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**[1] هذا فيه البشارة لهم بانتفاء المخاوف والأحزان عنهم، ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ هذا فيما يستقبلون ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هذا فيما مضى، والإنسان إنما يلحقه الأذى من خوف المستقبل، أو فوات الخير في الماضي، فإذا حصل له الأمن من هذين الأمرين: لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، فهو في غاية الطمأنينة والسعادة، ثم بين سبحانه وتعالى من هم أولياء الله فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[2] الذين آمنوا بقلوبهم، فصلحت قلوبهم واستقامت أفئدتهم، وكانوا يتقون في أعمالهم وجوارحهم.

والتقوى هنا هي فعل ما أمر الله سبحانه وتعالى به، وترك ما نهى عنه، وهذا وصف شامل، يتميز به أولياء الله عن غيرهم، وبه نعلم مما تقدم أن الولاية ليست مكتسبةً بالنسب، ولا مكتسبةً بالجاه، ولا مكتسبةً بالوراثة، ولا مكتسبة بملبسٍ معين، أو بانتسابٍ إلى جهة معينة كمذهبٍ أو غيره، إنما تكتسب بالعمل الذي دائرته الكبرى: هي اتباع النبي ﷺ، وتفصيله، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾.

قال رحمه الله: (**ثم صار الأمر عند أكثر من يدّعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشريعة، إلى أن الأولياء لابد فيهم من ترك اتباع الرسل**) وهذا في وقته رحمه الله، حيث هجرت السنة، وتعصب الناس لما كانوا عليه من مذاهبَ وأقوالٍ، وآراء، وأصبح المتَّبعُ للنبي ﷺ غريباً بينهم.

ثم قال: (**ومن تبعهم فليس منهم**) أي: ومن تبع هؤلاء الذين استقاموا على الكتاب والسنة، فليس منهم، يعني: فليس من أولياء الله، لأنه إذا كان الداعي إلى الكتاب والسنة عند هؤلاء الذين تحدث الشيخ عنهم ليس من أولياء الله، فما هي حال غيرهم ممن هو تابع لهم؟ الجواب: أنه لا يكون من أولياء الله من باب أولى.

---

(١) يونس : ٦٢ .

(٢) يونس : ٦٣ .

ثم قال رحمه الله تعالى: (**ولا بد من ترك الجهاد**) هذا انتقال إلى تفصيل ما عليه أولئك الذين وصفهم رحمه الله، ممن يدعي منهم ولاية الرحمن وهم على خلاف ذلك قال: **(لابد من ترك الجهاد)** وذكر الجهاد رحمه الله تعالى لأن الله سبحانه وتعالى جعل المجاهدين أولياءه، في قوله جل وعلا: ﴿ **يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله** ﴾[1] فخالفوا النص القرآني الدال على أن الجهاد في سبيل الله من أسباب تحصيل الولاية، وكونه من أوصاف أولياء الرحمن، ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، والقرآن ماذا يدل عليه؟ القرآن يدل على عكس هذا، وهو أن الجهاد من أوصاف أولياء الله سبحانه وتعالى.

ثم قال رحمه الله تعالى: (**ولا بد من ترك الإيمان أيضاً**) هذا لكون الإيمان قد جاء في القرآن: أنه من أوصاف أولياء الله كما في قوله جل وعلا: ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾.

ثم قال: (**فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم**) أي: من اتصف وحافظ على هذين الوصفين فليس من أولياء الله هؤلاء الأولياء المزعومين، وهؤلاء هم في الحقيقة أولياء الشيطان، لا أولياء الرحمن، لأن أولياء الرحمن هم من وصفهم الله في كتابه، وأما هؤلاء فهم معاندون، معارضون، وكل من ادعى الولاية فلا بد من عرضه على الكتاب والسنة، فإن كان من ادعى الولاية أو أُدّعيت له الولاية، فقد لا يدعي الولاية لنفسه، بحيث لا يقول: إني ولي، لكن قد يزعم اتباعه أنه ولي، فلابد حينئذٍ أن نعرض حال هذا الرجل على هذه الموازين الدقيقة، والمعايير الناطقة المميزة لأولياء الرحمن عن غيرهم، هل هو من المتبعين للكتاب والسنة؟ هل هو من المجاهدين في سبيل الله جهاد السيف والسنان، أو جهاد العلم والبيان؟ وهل هو من الذين آمنوا وكانوا يتقون؟ إذا كان كذلك فهو من أولياء الله، وأما إذا تخلفت فيه هذه الأوصاف فإنه يتخلف فيه من وصف الولاية، بقدر ما تخلف فيه من صفات الولاية، ولذلك كان من كلام السلف: إذا رأيت الرجل يطير في السماء، أو يمشي على الماء، فلا تقل إنه ولي، حتى تعرضه على الكتاب والسنة.

ثم قال رحمه الله تعالى: (**يا ربنا نسألك العفو والعافية، إنك سميع الدعاء**) نعم نسأل الله العفو والعافية، لهذا القلب لما دل عليه الكتاب والسنة، والمعارضة والمعاندة، لما دل عليه كلام الله سبحانه وتعالى.

---

(١) المائدة : ٥٤ .

الدرس السادس

الأصل السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي: أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد المطلق هو الموصوف بكذا و كذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر. فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضاً حتماً لا شك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون لأجل صعوبة فهمهما، فسبحان الله وبحمده كم بيّن الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۞ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۞ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ آخره، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فهذا هو آخر الأصول الستة من هذه الرسالة المباركة، التي سماها الشيخ رحمه الله ستة أصول عظيمة، مفيدة.

يقول رحمه الله: (**الأصل السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة** – ما هذه الشبهة؟ – **هي: أن القرآن والسنة لا يعرفهما** – عند من أعمتهم الشبهة – **إلا المجتهد المطلق، والمجتهد المطلق هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر**)، هذا الأصل السادس والأخير: هو دعوة من الشيخ رحمه الله إلى تدبر كتاب الله عز وجل، والإقبال على الانتفاع بسنة رسول الله ﷺ، وأن ينظر الإنسان في هذين الأصلين العظيمين، اللذين يضمن لمن أخذ بهما سعادة الدنيا والآخرة، فإن الإقبال على الكتاب والسنة سبيل السلف الصالح، وهو طريق السعادة بلا ريب، فهذه الشبهة منعت كثيراً من الناس من الإقبال على

الكتاب السنة، والشيخ رحمه الله يريد أن يفرد هذه الشبهة ببحثٍ خاص، ليبين به زيف هذه الدعوى وبطلانها، وهذه الشبهة كما سبق: هي أن الكتاب والسنة لا يفهمهما كل أحد، إنما يفهمهما المجتهد المطلق، أو يستنبط منهما المجتهد المطلق.

قال رحمه الله تعالى: **(والمجتهد المطلق هو الموصوف بكذا وكذا)** كنى عن الصفات التي ذكروها مطولةً في كتب أصول الفقه بقوله: كذا وكذا.

ثم قال رحمه الله تعالى عن هذه الشروط: **(أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر)** وحقيقة أنها لا توجد في أبي بكر وعمر: لأنهم يشترطون أن يكون المجتهد محيطاً بسنة رسول الله ﷺ، لا يغيب عنه منها شيء، وهذا ليس في أبي بكر، ولا في عمر، فإن أبا بكر رضي الله عنه رجع إلى الصحابة يسألهم عن سنة رسول الله ﷺ وعمر رجع إلى الصحابة يستشيرهم ويسألهم هل عندهم عن رسول الله ﷺ خبر في قضايا متعددة، كدية الجنين، ودية الأصابع.

فهذه الشروط المطولة التي لا تنطبق على أحدٍ من الناس فضلاً عن العلماء في متأخري الزمان كانت حائلاً بين كثيرٍ من أهل العلم، وبين أن يستفيدوا من الكتاب والسنة، فمنعت الناس من الاجتهاد، وقَصَرَتْهم على تقليد المتقدمين في أقوالهم، لأنهم لا يستطيعون أن يستفيدوا من الكتاب والسنة على حدِّ هذا الزعم الباطل، وهذا غلطٌ كبير، وهو الذي سبب إغلاق باب الاجتهاد في بعض العصور، وأصبح المجتهد – كما قال المؤلف رحمه الله –: **(إما زنديقاً، أو مجنوناً)** يعني: منافقاً أو مجنوناً، فلا يقدم عليه إلا من تحمل هذين الوصفين، فامتنع الناس عن الاجتهاد، واقتصروا على التقليد، ولا شك أن الاجتهاد بابه مفتوح، ولكن ليس الاجتهاد أن يُعْمِلَ الإنسان الذي ليس عنده آلة الاجتهاد التي تمكنه من النظر في نصوص الكتاب والسنة على أسسٍ سليمة، فمتى كان فاقداً للآلة العلمية الكافية فإنه لا يحل له الاجتهاد حينئذ، بل لابد أن يكون عنده حد كافٍ من أوصاف المجتهد من العلم باللغة، والمعرفة بالكتاب وبالسنة، والمعرفة بقواعد الشريعة التي تمكنه من التوصل إلى الحكم، وأما هذه الشروط المطولة التي يذكرها علماء الأصول فهي نظرية فقط، ولو طبقتها على من اشترطها لم تجدها فيه، فإنه لا يصح ولا يسوغ.

قال رحمه الله تعالى في هذا الأصل: **(رد الشبهة)** والشبهة: هي في الحقيقة عارض يعرض للقلب، يمنعه من تصور الأمور على حقيقتها، هذا تعريف الشبهة، فيحصل بها اشتباه والتباس، فلا يميز الذي اشتبه عليه الأمر بين الحق والباطل.

وقال رحمه الله تعالى: (**التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة**) أي: لأجل ترك القرآن والسنة، فهي سبب لترك القرآن والسنة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة، وهو التقليد، وسماه اتباعاً وهو في الحقيقة تقليد وليس اتباعاً.

قال رحمه الله تعالى: (**وهي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق. . .**) كما تقدم الكلام عليه قريباً.

ثم قال: (**فإن لم يكن الإنسان كذلك**) يعني موصوفاً بهذه الصفات التي اشترطوها للمجتهد المطلق (**فليعرض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه،**) وهذا خلاف ما أمر الله به في كتابه، فالله عز وجل قال: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً** ﴾[1] ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[2] ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته** ﴾[3] ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[4] كل ذلك دعوة إلى التفكر والتأمل الذي يثمر الاستنباط ونتائج الاجتهاد، فالاجتهاد نتيجة للتفكر والتأمل والنظر في كلام الله ﷻ فمن لم ينظر في كلام الله ﷻ و لم يتدبره فإنه لا يتوصل إلى ما يريد من استنباطات حكميةٍ أو شرعية، فإن سبيل حصول الحكم: هو التدبر والنظر.

ثم قال رحمه الله تعالى: (**ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون**) يعني: لأجل صعوبة فهمهما، وهذا غلط، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾[5] فالله يسر القرآن، وهؤلاء يقولون: إنه عسير، وتيسير القران هو تيسير قراءته وفهمه، وليس فقط تيسير القراءة اللفظية، فإن القراءة اللفظية على العرب في ذلك الوقت من أسهل ما يكون، ولكن الكلام في تيسير الفهم وتسهيله، وهذا ما تميز به القرآن، فإنه يفهمه العامي ويفهمه العالم، لكن هذا القدر المشترك بين العامي والعالم ليس مانعاً من أن يتفاضل الناس في فهمه، فمن الناس من يؤتى فهماً عميقاً في القرآن، ومنهم من يقتصر على فهم اللفظ في حده الأدنى، ويشهد لهذا تفاضل الصحابة رضي الله عنهم، مع أنهم أهل اللسان في فهم آي القرآن، فهذا ابن عباس رضي الله عنه يفهم من قوله تعالى: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**

(١) النساء : ٢٨ .
(٢) محمد : ٢٤ .
(٣) ص : ٢٩.
(٤) الروم : ٢٤ .
(٥) القمر : ١٧ .

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾(١) ما لم يفهمه كبار المهاجرين والأنصار. كما جرى ذلك في قصته مع عمر ﷺ لما سأله عن هذه السورة، فإنه سألهم أولاً عن السورة فقالوا: هذه سورة أمر الله فيها رسوله بالتسبيح عند حصول الفتح، وهذا معنى واضح يدركه كل صاحب لسان، لكن الذي فهمه ابن عباس أمر زائد على هذا، وهو: أن هذه السورة نعت إلى النبي ﷺ نفسه، وأنها أخبرته بدنو أجله، وهذا فهم دقيق ما يتوصل إليه إلاّ من أعمل فكره ونظر وتأمل في هذا الكتاب العظيم، وفي سياق الكلام وسباقه.

ثم قال رحمه الله تعالى: **(فسبحان الله وبحمده كم بين الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في رد هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى، بلغت إلى حد الضروريات العامة)** ومن ذلك ما ذكرناه من إخبار الله ﷻ بتيسير القرآن، **(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)**.

ثم قال رحمه الله في الاستدلال على سوء حال هؤلاء وأنهم إنما منعوا فهم القرآن لشيء فيهم: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۞ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾(٢) لقد حق القول، المراد بالقول هنا: قول الله سبحانه وتعالى، وهو ما سبق في علمه وكتابه من أن هؤلاء لا ينتفعون بالقرآن، ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: على أكثر الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ.

ويمكن أن يكون المعنى على أكثر الناس فهماً، ﴿ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون ولا ينقادون ولا تطمئن قلوبهم بما جاءت به الرسل، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً ﴾ في للظرفية وتصلح أن تكون بمعنى (على) وكلا المعنيين صحيح، يعني: على أعناقهم أغلالاً.

والأغلال جمع غلٍّ، وهو ما يربط به رقبة الإنسان مع يديه، لكن انظر صفة هذه الأغلال نعوذ بالله منها، ﴿ فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ يعني قد ملأت رقابهم، فهي إلى الأذقان حتى وصلت إلى أذقانهم، فبلغت منهم مبلغاً لا يتمكنون فيه من النظر ولا من الحركة، ﴿ فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ أي مهلكون، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾(٣) نعوذ بالله.

(١) النصر : ١-٣.
(٢) يس : ٧ - ٨.
(٣) يس : ٩.

سداً يحجبهم ويمنعهم من النظر والمضي إلى الأمام، وسداً من خلفهم يمنعهم من الرجوع والنظر إلى ما مضى من العهد، فهم لا سبيل إلى حصول الخير لهم لا في ما مضى من الزمان، ولا في ما يستقبلون، لا فيما مروا عليه ولا فيما بين أيديهم، ﴿ **فأغشيناهم** ﴾ وهذا زيادة في عقوبتهم وعذابهم، لأن الله جعل عليهم غشاوةً، والغشاوة على القلب والبصر، لقوله: ﴿ **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ لا بصر عينٍ ولا بصر قلب، نعوذ بالله من ذلك، ﴿ **وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾[1] هذه نتيجة طبيعية، إذا كانت هذه حالهم فيستوي في حقهم النذارة وعدمها، كما قال تعالى: ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر** ﴾[2] فهم الذين أقبلوا على هذا الكتاب واتبعوا ما فيه، فالذكر هنا: هو القرآن، ويشمل كل ما ذكر به النبي ﷺ من القرآن وغيره، ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر** ﴾ واتباع الذكر يكون بعد النظر فيه والتأمل فيه والتدبر له، لأن الإنسان لا يتبع شيئاً إلا إذا فهمه وعقل ما فيه، هذا هو وجه الاستدلال بهذه الآيات على ما تقدم، ﴿ **وخشي الرحمن بالغيب** ﴾ يعني في الغيب، وهو عدم الشهادة، خشيه في الغيب، وهي الحال التي يحصل فيها ضعف الوازع عند كثير من الناس، ﴿ **فبشره بمغفرةٍ وأجر كريم** ﴾ نسأل الله أن نكون منهم.

وبهذا تكون قد تمت الأصول الستة، آخره، أي آخر ما كتب والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يس : ٩.

(٢) يس : ١١.